الفصل العاشر

التعاليم والهزيمة

ومضت الأيام في المدينة وعلى الرغم من العلاقات المعقدة بين القبائل والحاجة إلى اليقظة الدائمة، واصل محمد ﷺ الدعوة في ضوء ما ينزل عليه من وحي، وكان يتميز دائماً بالجمع بين الإخلاص التام لمبادئه والدفء الإنساني الذي يشع دائماً من وجوده.

وكان الصحابة يتلهفون على صحبته حتى إنهم كانوا يتبادلون الأدوار في صحبته، بغية قضاء أكبر وقت ممكن معه، يستمعون إليه ويتعلمون منه، كانت محبتهم له تتسم بشدة العمق والإخلاص، وكان النبي لا يفتأ يدعوهم إلى تعميق مودتهم ومحبتهم له في الله ونور محبته الأسمى.

اللطف، والاهتمام، والحب

وقد ظل محمد ﷺ في حياته اليومية، برغم انشغاله بالهجمات والخيانات وتعطش أعدائه للثأر، يهتم بالتفاصيل الصغيرة في الحياة، وبتوقعات من حوله، ويجمع دائماً بين الصرامة وسماحة الأخوة والغفران، وكان أصحابه وزوجاته يرونه يصلي الساعات الطوال ليلاً، بعيداً عن الناس، وحده في الصلوات الخافتة والدعوات التي تغذي حواره مع الواحد الأحد، وكانت زوجته عائشة ـ رضي الله عنها ـ تدهش منه وتعجب به: «لَم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟» فأجابها النبي ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» ولم يكن يطلب

مــن أصحابه القيام بالعبادات والصيام والأذكار التي كان يفرضها على نفســه، بــل كان على العكس يقــول لهم بالاعتدال وتجنــب الإفراط، وقد قــال لبعض الأصحاب الذين كانوا يريدون العزوف عن حياتهم الجنسية ويصلّــون الليــل كله أو الصيــام المتواصــل (من مثل عثمــان بن مظعون أو عبــدالله بن عمـــرو بن العاصــ – رضي الله عنهما)، فقــال لهم: «لا تفعلــوا ذلك! صوموا وأفطــروا. وصلوا وارقــدوا. إن لنفسكم عليكم حقاً وإن لعيونكــم عليكم حقاً وإن لزوجاتكم عليكم حقاً، إن لضيوفكم عليكم حقــاً»[2]. مــرة قال وردد قولــه ثلاث مــرات: «هلك المتنطعــون»[3]. وفي حديث آخر: «القصد القصد تبلغوا»[4].

وقــد ظل يسعــى إلى طمأنــة ضمائر المؤمنــين الذين كانــوا يخافون من نقــاط ضعفهم وتقصيرهم، في أحد الأيــام، رأى الصحابي حنظلة الأسيــدي أبــا بكر ـ رضــي الله عنهما ـ وشكا له بأنــه على يقين من أنه منافق (نافــق حنظلة) لأنه كانت تنتابه حــالات متناقضة: ففي حضرة النبــي ﷺ كان يكاد يــرى الجنة والنار، ولكن عندما يكــون بعيداً عنه، فإن زوجته وأولاده وشؤون الدنيا تجعله ينسى ذلك، وقد اعترف أبو بكر رضي الله عنه بأنــه يعاني من مشاعــر مماثلة، فذهبا إلى النبــي ﷺ ليسألاه عن وضعهمــا الذي يبعث الوحشــة والكآبة في حياتهمــا الروحية، وقد بسط حنظلة للنبي ﷺ طبيعة شكوكه فأجابه محمد ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»[5]. إنها الطبيعة البشريــة، التــي تتذكر وتنسى والتي تحتاج إلى التذكــر لأنها تنسى، لأن البشر ليسوا ملائكة.

وفي مناسبات أخرى، كان يفاجئهم بالقول بأن صدق الصلاة وفعل الخير والقيام بأي عمل عِبادة تتجلى في قلب احتياجاتهم البشرية، في الاعتراف المتواضع ببشريتهم. «فالأمر بالمعروف صدقة والنهي عن المنكر صدقة. وفي بضع أحدكم صدقة». فسأل الأصحاب متعجبين: «يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر؟» فأجاب: «أرأيتم إن وضعها في حرام ألا يكون عليها وزر؟ ولهذا فإنه يؤجر على الجماع المشروع»[(6)]. وهكذا فقد كان يدعوهم لألا يحرِّموا على أنفسهم أو يحتقروا دوافعهم البشرية ويعلمهم أن جوهر الأمر هو ضبط النفس، الجانب الروحي يتمثل في القبول والتحكم في الغرائز على السواء تلبية رغباتهم الطبيعية في ضوء مبادئهم هو صلاة، وليس عملاً سلبياً ولا نفاقاً.

كان النبي ﷺ يكره أن يدع أصحابه نهباً لمشاعر الذنب التي لا طائلة لها، كان لا يفتأ يقول لهم بألا يتوقفوا عن اللجوء إلى الواحد الأحد، الرحمن الرحيم، الذي يدخل الجميع في رحمته وكرمه والذي يحب القلوب الصادقة التي تندم على ذنوبها وتتوب إليه، وهذا هو المعنى العميق للتوبة المتاحة لمن يتوب بصدق إلى الله إذا أخطأ أو ارتكب هفوة أو ذنباً، الله يحب الرجوع إليه ويغفر ويطهر من الذنوب، وقد طبق النبي ﷺ نفسه ذلك في عدة مناسبات، ففي يوم جاء بدوي وبال في المسجد. فاندفع إليه الصحابة يريدون ضربه. فمنعهم النبي ﷺ وقال: «دعوه، وصبوا دلواً من الماء على بوله»[(7)].

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال له: «لقد هلكتُ!» وعندما سأله النبي ﷺ عن السبب اعترف الرجل بأنه «أتى زوجته في نهار رمضان». فأجاب النبي ﷺ: «تصدق!» فأجاب الرجل: «ما

عنـدي ما أتصـدق به!» ثم جلس قريباً من النبـي ﷺ. وبعد مدة قصيرة جاء رجل يحمل طعاماً هدية لمحمد ﷺ[8]. فنادى النبي ﷺ: «أين الرجل الـذي هلك؟» فأجاب الرجل الأول الذي اعـترف بخطئه: «هأنذا» فقال له النبـي ﷺ: «خذ هذا الطعـام وتصدق به». دُهش الرجـل وقال: «إلى من هـو أفقر مني؟ لا يوجد لدى أهلي ما يأكلونه!» فأجاب النبي ﷺ مبتسماً: «كلوه أنتم، إذاً»[9].

هذا اللطف وهذه الكياسة كانا يمثلان جوهر تعاليمه، كان لا يفتأ يقول: «الله رفيق يحب الرفق في كل شيء»[10]. وقال أيضاً: «إنه يعطي على الرفق مـا لا يعطيه على العنـف أو أي شيء آخر»[11]. وقال لأحـد أصحابه: «إن فيـك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[12]. وكان يدعو جميع أصحابه إلى مواصلـة الجهد ليكونوا رفقاء وسِمَاح. «إذا سمعتم عن أخيكم شيئاً لا ترضونـه فالتمسوا لـه من واحد إلى سبعين عذراً، فـإن لم تجدوا أي عذر فقولوا إن له عذراً لا نعرفه»[13].

أقـام عدد من الذيـن دخلوا حديثـاً في الإسلام -الذيـن لا مأوى لهم وفي كثـير من الأحيان ليس لديهم مـا يأكلونه- حول المسجد، قرب مسكن النبـي ﷺ، وكانـوا معدمين (عن عمـد في بعض الأحيـان، إذ إن بعضهم كانـوا يريدون أن يعيشوا حياة الزهد خالية من الممتلكات الدنيوية)، وكان طعامهم يعتمـد على صدقات المسلمين وهداياهـم، وأخذ عددهم يزداد، وسرعـان ما دعاهم المسلمون بعبارة «أهـل الصُفّة»[14]. وكان النبي ﷺ شديـد الاهتمام بوضعهم، وكان يظهر لهـم تعاطفاً متواصلاً، كان يصغي

إليهم ويجيب عن أسئلتهم ويلبي احتياجاتهم، وكان من خصائص شخصه وتعاليمـه، إزاء أهـل الصفّة، وغيرهم من جماعته، أنـه عندما كان يُسأل عن مسائل تتعلق بالروح أو الإيمان أو التربية أو الشك، كان يقدم إجابات مختلفـة عـن الأسئلـة نفسها، حيـث إنـه كان يأخذ في الاعتبـار التركيبة النفسية للسائل وخبرته وذكاءه.

كان المؤمنـون يشعرون بأنه يراهم ويحترمهـم ويفهمهم ويحبهم. وقد كان يحبهم في واقع الأمر ويقول لهم ذلك.

ثم إنه كان ينصحهم بأن يتذكروا الإفصاح عن محبتهم لبعضهم. «إذا أحـب شخص أخـاه أو أخته فليقل له إنه يحبـه» [15]. وفي يوم ما أخذ بيد معاذ بن جبـل وهمس: «يا معاذ، والله إني أحبك وأنصحك، يا معاذ، بألا تنسـى أن تقول عقب كل صلاة: اللهم، أعنـي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» [16]. بهذا أعطي الشاب حباً ودرساً روحياً وكان الدرس هو الذي رسخ بعمق لأنه كان محفوفاً بذلك الحب.

نصارى نجران

إن تاريـخ زيـارة نصارى نجران لمحمد ﷺ غـير معروف على وجه التأكيـد، بعض المصادر، مثل ابن هشام، يضعها قبل معركة بدر، بينما يقـول آخرون إنها جرت، حسـب نص يعزى إلى ابـن إسحاق (وكذلك استنـاداً إلى بعض الأحاديث والتسلسل التاريخـي لبعض آيات القرآن ذات الصلـة بالحدث)، بـين معركة بدر ومعركة أُحـد، غير أن التاريخ الدقيق لا يسهم كثيراً في خاتمة المطاف. إن الشيء الجوهري هو طبيعة اللقاء والغرض منه.

لقد زار النبي ﷺ وفد من أربعة عشر زعيماً دينياً من نجران لسؤاله عن الدين الجديد، وعن إيمانه، وبالطبع عن مركز عيسى عليه السلام في الإسلام[17]. كانت تعيش في الجزيرة العربية قبائل نصرانية عديدة ويبدو أن معظمهم كانوا يتبعون المذهب الأرثوذوكسي، الذي كان مركزه في القسطنطينية، أجاب النبي ﷺ عن أسئلتهم، مشيراً إلى الصلة بين الدينين، حيث إن الإسلام كان استمراراً لرسالة النبي عيسى عليه السلام، لكنه رفض رفضاً باتاً عقيدة الثالوث، فدعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد وإلى قبول الإسلام بوصفه آخر وحي السماء، وقد روى القرآن بشكل تفصيلي تلك المقابلة فضلاً عن نقاط التشابه والاختلاف بين التعاليم النصرانية والإسلامية[18]. وقد ورد في بداية السورة الثالثة (آل عمران) الإطار المرجعي للإسلام:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾[19].

يؤكد الوحي الاعتراف بالكتب السماوية السابقة التي أنزلت للناس من خلال موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ ويضيف بأن القرآن هو جزء من الدين السماوي ذاته، ثم يفصل القرآن لاحقاً تفاصيل الدعوة الموجهة إلى النصارى:

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[20].

إلى جانب تأكيد وحدانية الله ورفض الثالوث، هذه الآية تشجب مركز ودور الكهنة في النصرانية، فهنا، كما في آيات أخرى أو أحاديث نبوية، تدل الإشارة إلى «الأرباب» المحتملين على أنهم الذين يضعون أنفسهم وسطاء بين الله والناس وبذلك يدعون سلطات دينية غير مشروعة أو تنطوي على الغلو.

رفض وفد نجران قبول رسالة النبي، وقبل المغادرة، أراد أفراد الوفد الصلاة داخل المسجد، وظن الصحابة الموجودون أنه يجدر بهم معارضة ذلك، لكن النبي ﷺ تدخل وقال: (دعوهم يصلوا!)[21] فصلوا في المسجد متوجهين إلى الشرق، وقبيل مغادرتهم، طلبوا من النبي ﷺ أن يرسل مبعوثاً يعيش بينهم ويجيب عن أسئلتهم، وإذا دعت الحاجة، يحكم بينهم في بعض شؤونهم، وتم اختيار أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وقد اعترف عمر بن الخطاب رضي الله عنه لاحقاً أنه فشل في لفت انتباه النبي ﷺ ليرسله لهذه المهمة.

عاد الوفد إلى موطنه، كان النصارى قد جاؤوا إلى المدينة وسألوا عن الرسالة واستمعوا إلى محتويات الدين الجديد، وطرحوا حججهم وصلوا داخل المسجد ذاته، ثم عادوا دون أن يتعرضوا لأي أذى وظلوا نصارى يتمتعون بكامل الحرية.

ولم ينس الصحابة الأول موقف النبي ﷺ. فقد استخلصوا منه جوهر الاحترام الذي يتطلبه الإسلام من المؤمنين، الذين دعاهم إلى أن يذهبوا إلى أبعد من التسامح وأن يتعلموا ويستمعوا ويتفهموا كرامة الآخرين، إن الأمر ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ يتجلى في هذا الموقف الذي يحترم التنوع[22].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[23].

إن الاحترام الذي يتطلبه الله أكثر من التسامح (يستند إلى علاقة مساواة ومعرفة[24]. الله وحده هو الذي يعلم ما في الصدور ومدى ورع كل فرد، ويذكر القرآن في موضع آخر ويعترف بصدق سعيهم المتواضع وطلبهم لله، على الرغم من أنه يستنكر ويرفض وضع الكهنة وأهل المقامات الدينية.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[25].

تنص هذه الآية من السورة الخامسة (آخر وصية ينزل بها الوحي) على شروط العلاقة المتميزة بين المسلمين والنصارى، استناداً إلى صفتين أساسيتين: الصدق والتواضع. فدعوة النصارى، وكذلك بقية أصحاب التقاليد الروحية والدينية الآخرين للاجتماع والمشاركة والعيش معاً لما فيه منفعة الطرفين ستظل دائماً تستند إلى الشروط الثلاثة الآتية: محاولة التوصل إلى فهم الطرف الآخر، الصدق (ومن ثم الأمانة) خلال المقابلة والنقاشات، وأخيراً، تعلم التواضع بشأن اعتقاد كل طرف بأنه يملك الحقيقة، تلك هي الرسالة التي حملها النبي ﷺ في علاقته مع المؤمنين

مـن الأديـان الأخرى، وكمـا يتضح فإنـه لم يتردد في مناقضـة المعتقدات النصرانيـة (مثل الثالوث أو ودور القسيسين)، لكـن مواقفه كانت تستند في النهاية إلى المعرفة والصدق، والتواضع، وهي شروط الاحترام الثلاثة، وقد غادروا دون قيود واستمر الحوار مع مبعوث النبي ﷺ.

ابنة، زوجة

كانت حيـاة النبي ﷺ تتسم بالتواضع: كان مسكنـه خالياً من الأثاث وكثيراً ما لم يكن لديه سوى بضع تمرات للأكل، ومع ذلك فقد ظل يساعد الفقراء الذين كانوا حوله، لاسيما أهل الصفّة، الذين كانوا يقطنون قريباً مـن مسكنه، وعندما كان يتلقى الهدايا فإنه كان يجود بها وكان يقوم على الفـور بتحرير الرقيق الذين كانوا يرسلون إليـه كهدايا في بعض الأحيان: فقد فعل ذلك مع الرقيق أبي رافع الذي أرسله له عمه العباس عندما عاد إلى مكـة بعد أن تم تحريـره، ورغم ازدياد أهميـة دوره في مجتمع المدينة ومسؤولياته العديدة فقد حافظ على هذه البساطة في حياته، وفي الطريقة التـي كان يسمح بها لأفـراد مجتمعه الاتصال به، لم يكن يملك شيئاً، كان يسمـح للنساء والأطفال والرقيق وأفقر النـاس بأن يقتربوا منه ويخاطبوه. فقد كان يعيش بينهم وكأنه واحد منهم.

كانـت ابنتـه فاطمة – رضي الله عنهـا – قريبة جداً منـه، وقد تزوجت علـي بن أبـي طالب رضي الله عنه، ابن عم النبي ﷺ، وانتقلـت لتسكن قرب مسكن أبيها وكانت شديدة الاهتمام بالفقراء بمن فيهم أهل الصفّة. وعندما يكون النبـي ﷺ في بيته أو بين النـاس وتأتي إليه ابنته أو تدخل الغرفة، كان يقف لهـا ويحييها، ويظهر لها أمـام الملأ الاحترام الشديد والحنـان، وكان أهل

المدينـــة وأهل مكة يندهشون من سلوكــه إزاء ابنته، التي لم تكن تحظى، في تقاليدهم، بمثل تلك المعاملة، وكان النبي ﷺ يقبّل ابنته ويتحدث إليها ويسرّ لهــا ويجلسها بجانبــه، دون أن يعير أي اهتمام للتعليقات أو حتى الانتقادات التــي يمكن أن يثيرها سلوكه. فقد قبّل حفيــده الحسن، ابن فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ذات مرة أمام جماعة من البدو الذين ذهلوا لهذا السلوك، وقد أعرب واحد منهم –الأقرع بن حابس– عن صدمته وقال: «لدي عشرة أطفال ولم أقبل أحداً منهم أبداً!». فأجاب النبي ﷺ: «من لا يَرحم لا يُرحم»[26]. فمن خلال القــدوة الصامتة وملاحظاته، كان النبي ﷺ يعلّم شعبه حسن الأخلاق واللطف واللين واحترام الأطفال، ويبدي الاحترام والانتباه للنساء. وقد قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[27].

كانــت فاطمــة ـ رضــي الله عنها ـ تتلقــى تلك المحبــة وتعاليم الإيمان والحنان من أبيها وتنشرها حولها من خلال أعمالها إزاء الفقراء، على أنها في أحد الأيام تحدثت إلى زوجها بشأن ما تعانيه من مشقة: فهما مثل أبيها لا يملكان شيئاً وكانت تشعر بمشقة زائدة في إدارة حياتها اليومية وأسرتها وطفليهــا، فأشار عليها زوجها بــأن تذهب إلى أبيها وتطلب مساعدته، فقد يعطيها أحــد الأرقاء الذين أرسلوا له هدايا، فذهبــت إليه، لكنها لم تجرؤ علــى الإفصاح عن طلبهــا، كان احترامها لوالدها أعمــق من أن يسمح لها بذلك، وعندما عادت صامتة صفر اليدين قرر علي رضي الله عنه أن يذهب معها وأن يطلب هو نفسه المساعدة من النبي ﷺ. أصغى لهما النبي ﷺ وأخبرهما بأنه لا يستطيع عمل أي شيء لهما، وأن وضعهما أفضل بكثير من وضع أهل الصفّــة الذين كانوا بحاجة ماسة إلى مساعدته. فما عليهما سوى الصبر. فعادا حزينيين وقد خاب أملهما: فعلى الرغم من أنها ابنة النبي ﷺ وهذا ابن عمه، فلم يكن بوسعهما طلب أي امتياز اجتماعي.

في المساء جاء النبي ﷺ إليهما. فأرادا الوقوف لاستقباله، لكنه دخل وجلس بالقرب من فراشهما. وهمس قائلاً: «هل أدلكما على شيء أفضل مما طلبتماه؟» فقبلا عرضه، فقال لهما: «إنها كلمات علمني إياها جبريل وعليكما ترددادها عشر مرات بعد كل صلاة: سبحان الله والحمد الله والله أكبر» وقبل أن تأويا إلى الفراش عليكما تكرار كل من هذه العبارات ثلاثاً وثلاثين مرة»(28). لقد أجاب طلب ابنته المادي وهو جالس بقرب فراش ابنته ليلاً شديد الاهتمام باحتياجاتها، بأن أسرّ إليها شيئاً جاءه من عند الله: علّمها شيئاً روحياً وصلنا عبر العصور ويقوم به كل مسلم يعتبر أنه خاص به في قلب حياته اليومية، كانت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ مثل زوجها، مثالاً للتقوى والكرم والمحبة، كانت تعيش في ضوء تعاليم أبيها الروحية: العيش على القليل وطلب كل شيء من الواحد الأحد وإعطاء كل شيء من نفسها للآخرين.

بعد سنوات، وفيما كانت جالسة بقرب أبيها، الذي كان في حالة احتضار، بكت بكاءً شديداً عندما همس في أذنها، إن الله دعاه إليه وأنه حان وقت ذهابه، وابتسمت ابتسامة السعادة، بعد بضع دقائق، عندما أسرّ إليها ـ هذا الإسرار، المليء بالحنان كان يكشف على ما يبدو عن جوهر هذه العلاقة بين الأب وابنته ـ أنها ستكون أول من يلحق به من أهله.

نشأت عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوجة النبي ﷺ، أيضاً على مثال محمد ﷺ وأحاديثه، كان كل شيء يقود إلى تعليم روحي، وقد أصبحت لاحقاً مصدراً للمعلومات عن شخصية الرسول ﷺ وموقفه في حياته الخاصة والتزاماته الاجتماعية، فقد روت كيف أن محمداً ﷺ كان يهتم

بتوقعاتها ورغباتها عندما جاءت إلى بيته في المدينة، رغم صغر سنها في ذلك الوقت، كان اللعب جزءاً من حياتهما، ولم يمتنع محمد ﷺ أبداً عن المشاركة فيه أو عن السماح لها بإشباع فضولها، كما حدث عندما زاره وفد من الحبشة، فقد قام الحبشيون بألعاب مختلفة ورقصات تقليدية في فناء دار النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يقف على عتبة مسكنه، متيحاً المجال لزوجته لمشاهدة الألعاب بحرية من خلف كتفه[29]. وقد تحدثت كثيراً عن الطابع الخاص لاهتمامه بها وعن تعابير حنانه وما كان يتيحه لها من حرية في حياتها اليومية، وتدل محتويات الأحاديث النبوية التي روتها لاحقاً على مدى ما كان يحدثها به النبي ﷺ ويتحدث معها ويعبر لها عن حبه وحنانه، فقد كان يقوم أمامها -عبر سلوكه إزاء زوجته الذي كان قدوة- بإصلاح عادات المهاجرين والأنصار.

نزل الوحي بالآيتين المتعلقتين بلباس النساء في السنة الثانية للهجرة تقريباً[30]. كان الخِمار عبارة عن قطعة من القماش تضعها النساء فوق رؤوسهن ويلقين أطرافها على ظهورهن: وقد أمر القرآن النساء المسلمات بأن يضربن بالنهايات إلى الأمام لتغطية صدورهن بحيث تتم تغطية حناجرهن، وقد أطاعت زوجات النبي ﷺ، مثل بقية النساء، ذلك الأمر. ولم يتم تحديد وضعهن بوصفهن «زوجات النبي» إلا بعد سنتين، وذلك كي لا يخاطبن الرجال إلا من وراء حجاب، وقبل نزول الآيات التي تأمر زوجات النبي ﷺ بأن يقرن في بيوتهن بعيداً عن أنظار الرجال، تصرفت عائشة ـ رضي الله عنها ـ مثل بقية النساء الأخريات وكانت تظهر في الحياة العامة للمدينة. وقد أشركها النبي ﷺ وأراد أن يفهم أصحابه، من خلال الاقتداء بها، الدور الذي تقوم به النساء، ولا سيما زوجاتهم، في الحياة اليومية وفي الحياة العامة.

في يوم من الأيام دعا جار فارسي النبي ﷺ لتناول الطعام عنده، وسأل النبي ﷺ: «وماذا عنها؟» مشيراً إلى زوجته عائشة ـ رضي الله عنها .

فأجاب الرجل بالنفي، إشارة منه إلى أن الدعوة كانت موجهة إليه وحده، فرفض محمد ﷺ الدعوة، ودعاه الجار ثانية بعد فترة من الوقت، وسأل النبي ﷺ ثانية: «وماذا عنها؟»، وأجاب الفارسي بالنفي، ورفض محمد ﷺ الدعوة ثانية. ودعاه الجار للمرة الثالثة، وعندما سأل النبي ﷺ: «وماذا عنها؟» أجاب الرجل بالإيجاب، فقبل النبي ﷺ الدعوة وذهب إلى بيت جاره مع عائشة ـ رضي الله عنها ـ[31]. فمن خلال اتخاذ المواقف الثابتة، كان النبي ﷺ يصلح العادات والممارسات التي كانت منتشرة لدى العرب والبدو في الجزيرة دون مهاجمة تقاليدهم.

كانت لعائشة، ولخديجة قبلها ـ رضي الله عنهما، بل لجميع زوجات النبي ﷺ وبناته وجود في حياته، وكن نشيطات في الحياة العامة ولم يخلطن أبداً الاحتشام بالتواري عن المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي أو حتى العسكري.

فقد منحهن النبي ﷺ وسائل الحياة والتطور والإعراب عن أنفسهن ويمارسن النقد وتجنب الحياء الزائف وكن يتحدثن في المواضيع الحرجة ذات الصلة بالمرأة وجسمها ورغباتها وآمالها، وفي سنوات لاحقة أعادت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى الأذهان باحترام وإعجاب تلك الجرأة الفكرية لدى نساء الأنصار اللواتي، كن، بخلاف النساء المكيات، يجرؤن على التعبير عن أنفسهن ويسألن أسئلة مباشرة: «بوركت نساء الأنصار»

obeikandl.com

لم يمنعهن حياؤهن عن طلب العلم (بشأن دينهن)[32]. وكانت هي قد تعلمت بالطريقة نفسها على يد النبي ﷺ: فقد كانت موجودةً عند نزول الوحي، وبقيت إلى جانب النبي ﷺ عند تبليغه للرسالة أو تقديمه التوصيات والنصائح، أو حين كان بمفرده يعيش دينه في معزل عن الناس، كانت تصغي وتسأل وتحاول أن تفهم أسباب ومعنى تصرفات زوجها ومواقفه، ولقد بلغنا، بفضل ذاكرتها وذكائها وعقلها النقدي، ما يقدّر بألفي حديث ونيّف، وكانت دائماً تصحح الروايات الصادرة عن الصحابة الآخرين.

كان ما أظهره النبي ﷺ وعائشة ـ رضي الله عنها ـ من حب لبعضهما قوياً وعميقاً، ولم تكن عائشة ـ رضي الله عنها ـ تتردد في أن تروي موقفه المتصف بالحنان والحب في حياتهما اليومية، ودفء عاطفته واهتمامه، حتى في شهر رمضان، كما أنها روت الأسئلة التي كانت تطرحها على النبي ﷺ بشأن شدة حبه لها، وعن غيرتها من خديجة ـ رضي الله عنها ـ المتوفاة وطريقة النبي ﷺ في إيجاد الوسائل دائماً لطمأنتها، لقد مكن وجود عائشة ـ رضي الله عنها ـ المحبة واليقظة والذكية إلى حد كبير ـ من رسم صورة دقيقة وعميقة عن الرسول ﷺ.

وفي السنة الخامسة أو السادسة للهجرة كانت ستتعرض لأضعف موقف في حياتهما، ففي طريق العودة من غزوة بني المصطلق، لاحظت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها فقدت قلادتها فذهبت تبحث عنها، في غضون ذلك، انطلقت القافلة دون أن تنتبه إلى غياب عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي كانت عادة تركب في هودج متوارية عن الأنظار،

فأوصلها في خاتمة المطاف رجل، هو صفوان بن المعطل، الذي كان خلف الجيش. فبدأت الإشاعات تنتشر عن علاقاتها بصفوان واتهمت في خاتمة المطاف بأنها خانت النبي ﷺ وخدعته، تأثر النبي ﷺ كثيراً، لا سيما أن بعض الصحابة كانوا يشنون حملة ضد زوجته، ويشيعون الإفك عنها، ابتعد النبي ﷺ عنها مدة شهر، لكنها ظلت صامدة وظلت تؤكد براءتها. ثم نزلت آيات لا تثبت براءتها فحسب، بل أيضاً تدين القذف وتشويه السمعة والذين يفعلون ذلك، ووضع شروط صارمة جداً بشأن الدليل الذي يجب أن يقدم من أجل الحكم على سلوك للمرأة أو للرجل فيه وضع غامض أو مريب(33).

هذه المحنة أزعجت عائشة ـ رضي الله عنها ـ والنبي ﷺ في أول الأمر، لكنها عززت حبهما وثقتهما في خاتمة المطاف، وعلى صعيد أعم، أدركت الجماعة الإسلامية أن المحن قد تصيب أخيارهم كما أن الوحي دان بشدة النميمة والقذف وتشويه السمعة، مذكراً المسلمين بـ «حفظ ألسنتهم» كما قال النبي لاحقاً(34). وقد استعادت عائشة ـ رضي الله عنها ـ مركزها وأصبحت مرجعاً بشأن المعرفة والعلوم الإسلامية. وقد أوصى النبي ﷺ أصحابه بقوله: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء»(35). وظلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فوق الشكوك والريب، صادقة في إيمانها وحبها للنبي ﷺ، وأصبحت قدوة في ورعها وتقواها وفي التزاماتها الفكرية والاجتماعية، كانت نموذجاً رائعاً من حيث ما أظهره النبي ﷺ من حب لها: ففي غرفتها أراد النبي ﷺ أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وهناك جرى دفنه.

أُحُد

علاوة على الشؤون الخاصة وتعاليمه الروحية والاجتماعية ظل النبي ﷺ يقظاً بشأن أمن مسلمي المدينة، وكان يعرف أن قريشاً تستعد للثأر. وقد جاءه خطاب من عمه العباس ـ رضي الله عنه ـ يقول له فيه إن جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل ونيّف قد انطلق متجهاً إلى المدينة، ولم يكن أمام النبي ﷺ سوى أسبوع واحد لوضع إستراتيجيته وتنظيم مقاومته. فقرر القيام على الفور بعقد اجتماع تشاوري ليعرف آراء صحابته بشأن المسألة، كان عليهم أن يختاروا بين البقاء داخل المدينة وانتظار دخول العدو، كي يوقعوه بكمين، وبين الخروج من المدينة ومواجهة العدو مباشرة في سهل قريب من المدينة، كان النبي ﷺ يرى، هو والكثيرون من أصحابه، بمن في ذلك عبد الله بن أبي سلول الذي لا يوثق به، أن ينتظروا العدو داخل المدينة، غير أنه لم يؤخذ برأيه في المناقشات، لاسيما من خلال معارضة الشبان من الصحابة الذين لم يشتركوا في معركة بدر: كانوا يأملون في أن يحققوا في المعركة الوشيكة ما حققه المقاتلون في بدر من فخار.

كان رأي الأكثرية الخروج من المدينة ومواجهة العدو وجهاً لوجه، فقبل محمد ﷺ القرار وانطلق على الفور إلى منزله ليرتدي عدة الحرب، لأنه لم يكن لديهم وقت يضيعونه، وقد شعر بعض الصحابة بالذنب ورأوا أنه قد يكون من الأفضل لهم أن يطيعوا النبي ﷺ. فجاؤوا إليه فيما كان خارجاً من بيته، واقترحوا أن يعاد النظر في القرار، وأنه يتعين عليهم قبول رأيه، فرفض رفضاً قاطعاً: فقد تم اتخاذ القرار بشكل جماعي وقد ارتدى عدة الحرب ولم يكن يوجد أي احتمال في الرجوع عن القرار.

obeikandl.com

انطلقـوا إلى أُحُـد، كان جيشـ المسلمـين مكونـاً من ألـف مقاتل عليه مواجهـة عدو مكون من ثلاثـة آلاف، وفي طريقهم إلى أحد، قرر عبد الله ابـن أبي بن سلول التخلي عنهم وتبعه ثلاث مئة من رجاله، وقد انحى ابن أبي سلول باللائمة على النبي ﷺ لأنه سمح لأشخاص صغيري السن وليس لهـم تجارب أن يؤثروا عليه، بدلاً من أن يتخذ هو القرار، الذي كان قراره هـو أيضاً ـ بالبقـاء في المدينة وانتظار العدو، كان تخليـه مسألة خطيرة، حيث إنه خفض إلى سبع مئة مقاتل الجيش الإسلامي الذي لم يعد بوسعه تغيـير إستراتيجيته والعودة إلى المدينة، كان نفاق ابـن أبي سلول معروفاً وكان موضـع شك في أنـه قام بعدة خيانات: ذلك القـرار، قبيل المواجهة، كان دليلاً إضافياً على ازدواجيته ونفاقه.

ومضـى المسلمون قدماً، رغـم أن عددهم قد انخفض وأدى إلى إضعافهم كثـيراً، وفي الطريـق، رأى النبـي ﷺ ستة من الشبان تـتراوح أعمارهم بين ثـلاث عشرة وست عشرة سنـة قد اختلطوا بالجيش، فقام على الفور بإرجاع أربعـة منهم كانـوا أصغر مما ينبغي، ووافق على إبقـاء اثنين عمرهما خمس عشرة وست عشرة سنة أثبتا له على الفور أنهما أفضل في الرمي والقتال من الكثيرين من الرجال، كان قرار قبولهما في هذا الموقف صعباً لكن النبي ﷺ كان دائمـاً يصـر على إبعاد الأطفـال من مناطق المعـارك، كجنود وكضحايا محتملـين على السواء، وقد كرّر ذلـك بشدة، كما سنرى، قبل إحدى الغزوات الأخيرة، وظلت هذه الرسالة، المتعلقة بأخلاق الحرب ثابتة في رسالته.

كان يتعـين على جيشـ المسلمين إيجاد طريق غير ظاهـر إلى أُحُد من شأنـه أن يمكن الجيش من الاقتراب من أرض المعركة دون أن يتوقع العدو

قدومهم أو أن يكتشفهم، ومرة أخرى أولى النبي ﷺ ثقته لدليل غير مسلم استجاب لدعوته وكانت قدراته معروفة فقاد الجيش إلى مقصده. أخذ المسلمون مواقعهم وشرح النبي ﷺ إستراتيجيته القتالية لجنوده. فقد أمر الرماة بالبقاء على رأس تلة، على أن يقوم الفرسان والجنود بمهاجمة العدو مباشرة في السهل، وأمر الرماة بألا يغادروا أماكنهم في أي ظرف من الظروف، سواء أكان الجنود في الأسفل منتصرين أو منهزمين، وذلك لمنع قريش من إتيانهم من خلف التلة ومهاجمة الجنود من الخلف،كان هذا في الواقع، ما حاولت إحدى بعض مجموعات من قريش القيام به منذ أول المعركة، لكنهم قوبلوا بوابل من السهام أجبرتهم على التراجع، كانت الإستراتيجية تعمل بنجاح.

بدأ القتال، وفي السهل كان الجنود المسلمون يحققون السيطرة شيئاً فشيئاً، وكانت قريش تتراجع وتتكبد خسائر فادحة، بينما أظهر المهاجرون والأنصار شجاعة تدعو إلى الإعجاب، وقد برز بين هؤلاء المقاتلين امرأتان بما أظهرتاه من بأس وقوة: أم سُليم، وخاصة امرأة من الأنصار اسمها نسيبة بنت كعب ــ رضي الله عنها ـ كانت قد جاءت في أول الأمر تحمل الماء وتعتني بالجرحى، ونزلت في خاتمة المطاف إلى المعركة وأخذت سيفاً وقاتلت قريشاً(36).

ولم يقم النبي ﷺ أبداً بدعوة أو نصح النساء بالقتال، ولكن عندما شاهد روح نسيبة المعنوية وبأسها في المعركة، أثنى على سلوكها ودعا الله أن يحميها وينصرها ويمنحها النجاح.

أصبح من الواضح أن المسلمين كانوا متفوقين ومنتصرين، رغم

النكسـات وموت بعض الصحابـة. كان حمزة رضي الله عنه، عـم النبي صلى الله عليه وسلم هدفاً لثأر هند منذ الهزيمة في بدر. وقد تم تكليف وحشي، وهو حبشي من رماة الرمـح، بمهمة واحدة وهي قتل حمزة رضي الله عنه، وهذا ما ركز جهده على القيام به: ففيما كان عم النبي صلى الله عليه وسلم منهمكاً في القتال، اقترب منه وحشي وقذف رمحـه بدقة بالغة فأصابه وقتلـه على الفور. وجاءت هند لاحقاً تبحث عن جسم حمزة رضي الله عنه في ميدان المعركة وبعد أن مضغت كبده وحققت بذلك ما نذرته من شرب دمه ثأراً لموت ذويها، أخذت تمثل به، فقطعت أذنيه وأنفه وعلقتها حول رقبتها(37).

ومع ذلك، أظهر سير المعركـة أن النصر سيحالف المسلمين الذين ظلوا يدفعـون إلى الأمـام بينما كانت قريش تتراجع، تاركـين خلفهم مطاياهم وحاجياتهـم، رأى الرماة المتمركزين على التل مجرى الأحداث الذي أصبح لمصلحـة المسلمين وأن النصـر قريب، لاسيما الغنائم التـي كانت ملقاة في متنـاول الجنود الآخريـن، الذين كانوا، خلافـاً لهم، يقاتلـون في المقدمة. فنسوا أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ودعوة قائدهم عبد الله بن جبير: ولم يبق على التل سـوى عدد قليل مـن الرماة، بينما اندفع نحو أربعـين رجلاً منهم إلى سفح التـل، وهم قانعون بأن النصر قـد تحقق وأنه يحق لهم أيضاً الحصول على حصـة من الغنائم، وقـد لاحظ خالد بن الوليد، الخبـير بالتكتيك الحربي والـذي كان يقود إحـدى مجموعات قريش، حركة الرمـاة وقرر القيام على الفـور بالانقضاض حول التل ومهاجمة الجنود والمسلمين من الخلف، ونجح في شـن هجـوم كماشـة على أصحـاب محمـد صلى الله عليه وسلم وأدى ذلـك إلى حدوث فوضـى تامة وتفرق المقاتلون المسلمون في حالة مـن الفوضى الكاملة، فقتل

openkandi.com

البعض وفر البعض الآخر، بينما ظل آخرون يقاتلون دون أن يعرفوا حقاً إلى أيـن يوجهون ضرباتهم، وقـد تعرض النبي ﷺ للهجوم وسقط عن مطيته، وكسـرت إحـدى أسنانه وانغرسـت حلقات خوذته في اللحـم الدامي لخده. وانتشـرت إشاعة بأن النبي ﷺ قد قتـل، الأمر الذي زاد من حدة الفوضى بـين المسلمين، ثم قام بعض الصحابة بحمله على مطيته ووفروا له الحماية بحيث مكنوه من تفادي مهاجميه، وتمكن المسلمون من الانسحاب من أرض المعركـة، حيث كانـت تزداد صعوبة رؤيـة ما كان يجـري، وتجمعوا لمواجهة العـدو ثانية، إذا دعت الحاجة لذلك، وبعد انتهاء القتال لم يقتل من قريش سوى اثنين وعشرين، بينما بلغ عدد القتلى سبعين بين المسلمين، الذين كان من الواضح أنهم هزموا في ساحة القتال كما هزموا رمزياً.

كانـت لمخالفـة الرمـاة للأوامر عواقب مثـيرة، فقد استجـاب الرماة إلى إغـراء الثروة والربح وغلبت عليهم الممارسـات السابقة من ماضيهم الجاهلي، فرغم أنهم تشربـوا رسالة الإيمان بالله الواحد الأحد وبمبادئ العدل والعزوف عن مغريات الدنيا، إلا أنهم نسوا فجأة كل شيء عند رؤية الغنائم في المتناول، ففي تقاليدهم الوثنية كانت الانتصارات الحربية تقاس بمقدار الغنائم التي يجنيها المنتصرون، فهذا الجزء من كيانهم وثقافتهم قد تغلـب على تربيتهم الروحية، وكانت النتيجـة أن المسلمين وقعوا في فخ إستراتيجيـة رجل عسكـري فذ، هو خالد بـن الوليد، الـذي سوف يدخل في الإسـلام بعد بضع سنـوات ويصبح البطل الحربي للأمـة الإسلامية. فتلك اللحظة في المواجهة التي جرت في أُحُد كانت درساً عميقاً: فالبشر لا يستطيعـون أبداً التغلب التام على الثقافة والخبرات التي شكلت ماضيهم،

ولا يمكن أبداً إصدار حكم نهائي بشأن ما ستكون عليه خياراتهم النهائية. فقد وقع المسلمون فريسة لسمة مؤسفة في عاداتهم الماضية، أما خالد بن الوليد فسوف يتحول من شأنه أن يمحو كل الأحكام التي كانت قد صدرت بشأن ماضيه. «ما من شيء يدوم» هو درس في التواضع، «ويجب ألا يصدر المرء أحكاماً نهائية» هو وعد بالأمل.

نقلت قريش موتاها وحاجياتها، وسأل أبو سفيان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن مصير النبي ﷺ وتأكد من أنه لا يزال على قيد الحياة، وعندما رجع المسلمون بدورهم إلى أرض المعركة، رأوا الجثث التي تم التمثيل بها، وقد تأثر النبي ﷺ تأثراً بالغاً لدى رؤية عمه حمزة رضي الله عنه. وفي لحظة غضب، قال إنه سوف يثأر لحمزة رضي الله عنه ويمثل بثلاثين من جثث العدو في المواجهة المقبلة معه، لكن الوحي ذكره بالنظام والاعتدال والصبر: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾(38). أمر النبي ﷺ باحترام أجساد الأحياء والأموات، وبعدم ممارسة التعذيب أو التمثيل أو التشجيع عليهما، وذلك باسم احترام الخلق وكرامة الإنسان(39).

هزيمة ومبدأ

عاد المسلمون إلى المدينة، مثخنين بالجراح وبخيبة الأمل والأسى جراء ما أصابهم: كان عدد قتلاهم كبيراً وكانت هزيمتهم ناجمة من عصيان الأوامر بدافع الجشع وطلب الغنائم، وقد أصيب النبي ﷺ بجراح وكانت قريش بالتأكيد ستستعيد كبرياءها ومركزها في الجزيرة العربية. عند الوصول إلى المدينة سارع النبي ﷺ إلى الطلب من الذين اشتركوا في معركة أُحُد -

وحتى الجرحى منهم ـ أن يستعدوا لحملة أخرى ورفض عرض عبد الله بن أبي في أن ينضم إليهم، حيث إنه فر من الجيش قبيل المعركة، لكن النبي ﷺ لم يخبر أحداً بنواياه الحقيقية، فذهب إلى الحمراء، وعسكر هناك، وطلب من كل واحد من رجاله أن يعد عشر شعلات من النيران ويشعلها في الليل، هذه النيران أوحت للمشاهدين من بُعد بوجود جيش ضخم يتحرك.

قام محمد ﷺ بهذه المناورة ليوحي إلى قريش بأنه يستعد إلى رد فوزي وأن مهاجمة المدينة ستكون محفوفة بالخطر، وأرسل مبعوثاً (وثنياً أيضاً) إلى أبي سفيان لإبلاغه بهذا الحشد الخارق للجنود المسلمين، وقد ترك ذلك أثراً كبيراً في نفس أبي سفيان، رغم أنه كان عازماً على استغلال ضعف المسلمين وتوجيه ضربة نهائية لهم في قلب المدينة، إلا أنه غير رأيه وقرر عدم مهاجمة المدينة، وانتهى الأمر هنا: غادرت حملة محمد ﷺ الحمراء بعد ثلاثة أيام وعادت الحياة إلى مجراها.

في الأيام التي تلت نزل وحي على النبي ﷺ بشأن معركة أُحُد، ولاسيما بشأن الخلافات المتعلقة بالخيارات الإستراتيجية وعصيان الأوامر والهزيمة، ثم بموقف النبي ﷺ. فبقي النبي ﷺ رابط الجأش ومتعاطفاً مع أصحابه الذين انساقوا وراء رغبة المغانم وعصوا أوامره، روى الوحي الحدث وأكد ما قلناه في بداية هذا الفصل، بشأن المزيج المتواصل بين احترام المبادئ وقوة شخصية النبي ﷺ ولطفه:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[40].

openkandil.com

لقد بـدأت سلسلـة الأحداث التـي أدت إلى الهزيمة بالقـرار الذي تم اتخـاذه خلافاً لـرأي النبي ﷺ، ثم جـاء، بالطبع، عصيـان الأوامر من جانـب الرماة، لقد أكد القرآن هنا مبدأ الشورى مهما كانت النتائج: هذا الوحـي ذو أهمية حاسمة، فقد ذكر أن مبدأ المشاورة وقرار الأكثرية يجب ألا يكون موضع نقاش ويجب احترامه رغم الاحتمالات التاريخية والأخطاء البشرية في اتخاذ القرارات، لذا، فالمسلمون هم الذين «يصرفون شؤونهم بالتشاور فيما بينهم»، وهذا المبدأ يجب أن يبقى سارياً رغم أن طرق إنفاذه لا بد أن تتغير مع الزمن ومن مكان لآخر[41].

وفيمـا يتعلق بعصيان الرماة للأوامر، فقد بين الوحي أن صفات النبي ﷺ الخلقيـة هـي التي مكنتـه من التغلب علـى الموقف وإبقـاء الصحابة حولـه، فلم يكن يشعر بالمـرارة ولا بالقسوة ولم يحكم بإدانتهم لانسياقهم وراء الجشـع المنبثق عن عاداتهـم الماضية، فقد خفف لطفـه عنهم ألمهم ومكنهم من اشتقاق عدة دروس من تلك النكسة: فقد كان الله مع قدرهم بقـدر ما كانوا هم يشعرون بأنهم مسؤولون عنـه، وكما أنه لا يوجد مجال للجبريـة في تعاليم الوحي، فإنه لم يكن هناك مجـال للتفاؤل الهوائي بأن طريقهـم سيكون سهلاً لمجرد أنهم يقاتلون في سبيل الله، بل على العكس، فـإن الإيمان يقتضي شدة الحرص من حيث احـترام المبادئ، والمزيد من المشاعر في العلاقات الإنسانية، والمزيد من الحذر بشأن خطر التواكل.

لقـد كانت معركة أُحُد ذلك الدرس في الهشاشة، وقد ذكر النبي ﷺ الجريـح، بعد المعركـة، أن أي شيء قد يحدث: فقد عـبّر دمه عن بشريته الصارخة وأعادها إلى الأذهان.